

كيف دوّن علماء وأمرء العرب أولى السير الذاتية في التاريخ؟



الأحد 5 يوليو 2026 10:30 م

لطالما ساد في الدراسات الغربية تصوّر مفاده أن السيرة الذاتية، بوصفها فنًا أدبيًا يقوم على كشف الذات واستعراض التجربة الشخصية، هي ثمرة خالصة للحضارة الأوروبية الحديثة، وأن الإنسان الغربي وحده هو من امتلك الوعي الفردي الذي دفعه إلى كتابة حياته وأفكاره ومشاعره [1]. غير أن العودة إلى التراث العربي الإسلامي تكشف صورة مختلفة تمامًا، إذ تزرخ المكتبة العربية بنصوص ذاتية سبقت أشهر السير الغربية بقرون، وقدم أصحابها شهادات شخصية صادقة عن الفكر والسياسة والحروب والحياة اليومية [2].

ويؤكد عدد من الباحثين أن هذه النصوص تمثل من أقدم السير الذاتية المكتملة في التاريخ، وقد كتبها علماء وأمرء وفرسان عاشوا في القرن الخامس الهجري، أي قبل ما يقرب من ألف عام، مقدمين للقارئ نماذج متنوعة من أدب الاعترافات والمذكرات الشخصية التي تناولت أزمت الإيمان، وصراعات الحكم، وأهوال الحروب الصليبية، والعلاقات بين المسلمين والأوروبيين [3].

جدل حول ريادة الغرب

رغم أن الإمام جلال الدين السيوطي أشار منذ قرون إلى أن العلماء اعتادوا كتابة تراجم لأنفسهم، فإن هذا التراث لم يحظ بالاهتمام الكافي في كثير من الدراسات الغربية [4]. فقد ذهب عدد من المستشرقين والباحثين الأوروبيين إلى أن السيرة الذاتية لم تزدهر إلا داخل الحضارة الغربية، معتبرين أن ثقافة الاعتراف والحديث عن الذات كانت غائبة عن الحضارات الأخرى [5].

لكن مراجعة التراث الإسلامي تظهر عشرات النصوص التي تتجاوز مجرد الترجمة الشخصية، لتتحول إلى سرد متكامل لتجربة الإنسان مع الفكر والسياسة والدين والحرب، وهو ما دفع باحثين معاصرين إلى إعادة النظر في تلك الأحكام، مؤكدين أن الأدب العربي عرف هذا الفن في وقت مبكر جدًا [6].

وتشير الدراسات الحديثة إلى وجود أكثر من 140 سيرة ذاتية عربية تمتد من القرن الثاني الهجري حتى العصر الحديث، بينما أحصى الشيخ بكر أبو زيد ما يقارب مئة عالم كتبوا عن أنفسهم، وإن كانت قلة منهم أفردت مؤلفات مستقلة لسيرها الذاتية [7].

الغزالي [8] رحلة الشك بحثًا عن اليقين

يعد كتاب "المنقذ من الضلال" للإمام أبي حامد الغزالي واحدًا من أهم النصوص الفكرية في التاريخ الإسلامي، فهو ليس مجرد كتاب في العقيدة أو الفلسفة، بل سيرة ذاتية فكرية يرصد فيها مؤلفه تحولات عقله منذ بداياته وحتى وصوله إلى ما اعتبره اليقين [9].

كتب الغزالي هذا العمل استجابة لطلب أحد تلاميذه، فسرد تجربته مع المدارس الفكرية المختلفة، موضِّحًا كيف دفعه تعطشه للحقيقة إلى دراسة علم الكلام والفلسفة والباطنية والتصوف، دون أن يكتفي بالنقل أو التقليد، بل اختبر كل منهج بنفسه [10].

ويكشف الكتاب عن أزمة فكرية عميقة عاشها الغزالي، إذ بدأ بالتشكيك في مصادر المعرفة، فتساءل عن صدق الحواس، ثم عن قدرة العقل على الوصول إلى الحقيقة المطلقة، قبل أن يخلص إلى أن العقل وحده لا يكفي، وأن التجربة الروحية تمثل مرحلة أعلى في المعرفة [11].

ويصف الغزالي نفسه بأنه لم يكن يرفض أي فكرة قبل فهمها، بل كان يحرص على دراسة كل مذهب من داخله، سواء كان فلسفيًا أو كلاميًا أو صوفيًا، وهو ما منح كتابه قيمة استثنائية باعتباره شهادة مباشرة على واحدة من أشهر الأزمات الفكرية في التاريخ الإسلامي.

هل تأثر ديكرت بالغزالي؟

أثارت سيرة الغزالي اهتمام عدد من الباحثين الذين رأوا تشابهًا لافتًا بينها وبين المنهج الفلسفي الذي اتبعه الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكرت بعد نحو خمسة قرون.

وتنقل بعض الروايات أن نسخة لاتينية من "المنقذ من الضلال" كانت موجودة ضمن مكتبة ديكرت، وأنه دوّن ملاحظات على صفحاتها، الأمر الذي فتح بابًا واسعًا للنقاش حول احتمال تأثره بالمنهج الغزالي في الشك المنهجي.

ورغم استمرار الجدل الأكاديمي حول حجم هذا التأثير، فإن التشابه بين العمليتين يبقى محل اهتمام الباحثين، خاصة أن كلا الكتائين يقوم على مراجعة الذات والبحث عن اليقين عبر رحلة عقلية وفلسفية معقدة.

أمير الأندلس يكتب دفاعه الأخير

أما النموذج الثاني فيتمثل في الأمير عبد الله بن بلقين، آخر حكام دولة بني زيري في غرناطة، الذي كتب مذكراته بعد سقوط مملكته في يد المرابطين.

ويحمل كتابه "التبيان" طابعًا سياسيًا واضحًا، إذ أراد من خلاله الدفاع عن نفسه أمام التاريخ، وتفسير أسباب انهيار دولته، والرد على الاتهامات التي وجهها إليه خصومه.

ولا يكتفي الأمير بسرد الأحداث، بل يناقش مفهوم الشرعية السياسية، ويحلل أسباب ضعف ملوك الطوائف، والانقسامات التي مزقت الأندلس، والعلاقات المعقدة مع الممالك المسيحية، كما يقدم مبرراته لعقد الصلح مع ملك قشتالة ألفونسو السادس، معتبرًا أن ذلك كان ضرورة لحماية المسلمين.

ويكشف الكتاب كذلك عن طبيعة الحياة السياسية في الأندلس، حيث كثرت المؤامرات والانقلابات، وتبدلت الولاءات، وتعاضم نفوذ الوزراء، وتكررت الصراعات بين الحكام المسلمين أنفسهم، في وقت كانت فيه الممالك المسيحية تواصل تقدمها.

سقوط الملك والرحلة إلى المنفى

تتحول مذكرات ابن بلقين في صفحاتها الأخيرة إلى شهادة إنسانية مؤثرة عن لحظة سقوط السلطة.

فبعد عزله، يصف الأمير تفاصيل خروجه من غرناطة، ومصادرة ممتلكاته، وتفتيش أفراد أسرته، واضطراره إلى بيع ثيابه لتوفير احتياجاته، قبل أن يستقر في بلدة أغمات المغربية التي تحولت إلى منفى لعدد من ملوك الأندلس.

ويروي كيف دفعته المحنة إلى مراجعة حياته، فابتعد عن مظاهر الترف، واتجه إلى دراسة الفلسفة والطب والفلك، معلنًا توبته من بعض ما كان عليه خلال فترة الحكم، ومؤكدًا أن التجربة علمته أن الدنيا لا تدوم لأحد.

أسامة بن منقذ شاهد القرن الصليبي

أما السيرة الثالثة، فهي الأشهر والأغنى بالمشاهد التاريخية، وتعود إلى الفارس والأديب أسامة بن منقذ في كتابه "الاعتبار".

ويعد هذا العمل واحدًا من أهم المصادر التي توثق الحياة في بلاد الشام خلال الحروب الصليبية، إذ جمع بين السيرة الذاتية واليوميات العسكرية والمشاهد الاجتماعية والثقافية.

ولد أسامة في أسرة عرفت بالشجاعة والعلم، وخاض عشرات المعارك ضد الصليبيين، وتنقل بين بلاطات الحكام في الشام ومصر والعراق، وشهد أحداثًا كبرى امتدت قرابة قرن كامل.

وتزخر مذكراته بقصص عن المعارك، والفروسية، والصيد، والسياسة، كما تقدم وصفًا دقيقًا لعادات الأوروبيين في ذلك العصر، ونظمهم القضائية، وأساليبهم الطبية، وعلاقاتهم الاجتماعية.

بين الإعجاب والعداء

ورغم أن أسامة قاتل الصليبيين سنوات طويلة، فإن كتابه يتميز بقدر كبير من الموضوعية، إذ لم يتردد في الإشادة بشجاعة بعض فرسانهم، أو الاعتراف بتفوقهم في مواقف معينة □

وفي المقابل، سجل ملاحظات نقدية حول بعض عاداتهم، خاصة في مجالات الطب والنظافة والعلاقات الأسرية، كما روى قصصًا طريفة عن الاختلافات الثقافية بين المجتمعين الإسلامي والأوروبي □

ومن أبرز ما وثقه أيضًا حادثة فقدانه مكتبته الضخمة التي ضمت نحو أربعة آلاف مجلد، بعدما استولى عليها الصليبيون أثناء انتقاله من مصر إلى الشام، وهو الحدث الذي وصفه بأنه أكثر ما ألمه في حياته، حتى أكثر من خسارة الأموال □

نافذة على المجتمع الإسلامي

لا تقتصر قيمة هذه السير الثلاث على كونها اعترافات شخصية، بل تمثل مصادر تاريخية نادرة تكشف تفاصيل الحياة السياسية والفكرية والاجتماعية في العالم الإسلامي خلال القرن الخامس الهجري □

ففيها نجد وصفًا للحياة العلمية، وأساليب التعليم، والعلاقات بين الحكام والعلماء، وأوضاع المدن الإسلامية، وطبيعة الصراعات الداخلية، إضافة إلى صورة دقيقة عن بدايات الحملات الصليبية وتأثيرها في المجتمعات الإسلامية □

كما تكشف هذه النصوص عن تطور مبكر لفكرة الإنسان الفرد، وقدرته على التأمل في ذاته، ومراجعة أخطائه، وتوثيق تجاربه بلغة تجمع بين الأدب والتاريخ والفلسفة □

تراث يستحق إعادة الاكتشاف

تؤكد هذه النماذج أن فن السيرة الذاتية لم يكن حكرًا على الحضارة الغربية، بل عرفه العرب والمسلمون قبل قرون طويلة، وقدموا فيه أعمالًا ذات قيمة أدبية وتاريخية وفكرية كبيرة □

ومن خلال "المنقذ من الضلال" للغزالي، و"التبيان" لعبد الله بن بلقين، و"الاعتبار" لأسامة بن منقذ، يتضح أن التراث العربي الإسلامي احتضن مبكرًا أدب الاعتراف والمذكرات الشخصية، وأن كتابه لم يكتفوا بسرد أحداث حياتهم، بل جعلوا من تجاربهم الفردية مدخلًا لفهم المجتمع والسياسة والفكر والدين □

وبذلك، تبدو إعادة قراءة هذه الأعمال اليوم ضرورة معرفية، ليس فقط لإنصاف التراث العربي، وإنما أيضًا لتصحيح صورة تاريخية طالما اختزلت نشأة السيرة الذاتية في التجربة الغربية، متجاهلة إرثًا عربيًا زاخرًا سبقها بقرون وأسهم في تشكيل أحد أهم فنون الكتابة الإنسانية □